الجانب الاجتماعي
في
الشعر الفلسطيني الحديث

د. محمد شحادة عليان

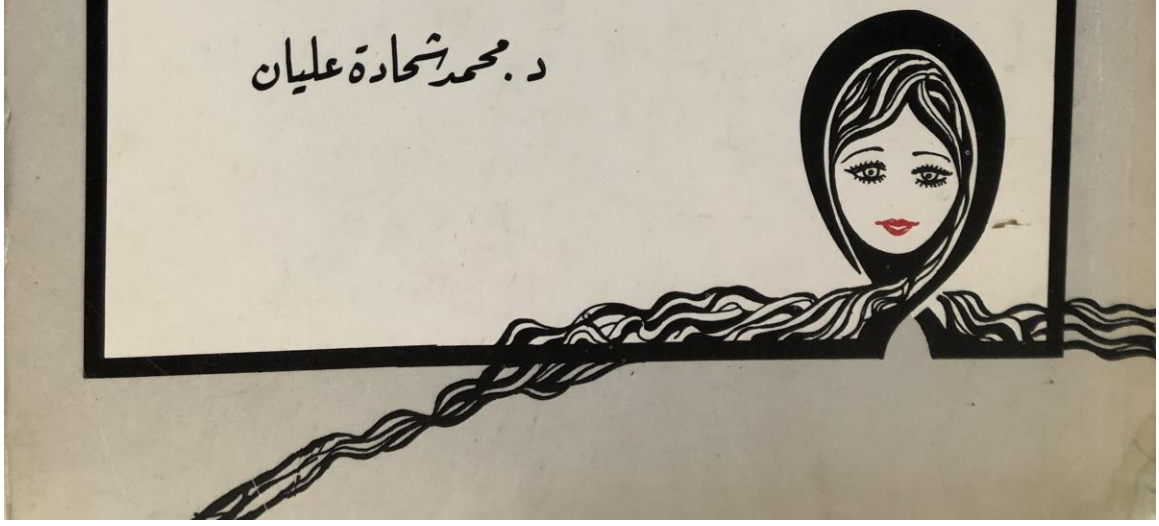

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمـــة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه الأبرار ، ومن تخلّق بأخلاقهم وسار على نهجهم وبعد .

عندما ألّمت الفاجعة بالأمة العربية في عدوان حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ووقعت فلسطين بكاملها في الأسر الصهيوني ، كاد الأمل في العودة أن يخنق ، ولكن تلك الحالة من اليأس والضياع لم تستمر ، بعد أن هبّ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ليعيدوا للفجر الفلسطيني ضوءه وليصنعوه على أعينهم . وبدأ سراج الأمل يبدد سحب اليأس ، ويقهر الظلم والعسف والاضطهاد . ولئن طال الانتظار فلن نملّ ، لأن النصر يستحق هذا الانتظار الطويل بعد أن تكالبت قوى الغدر على وطن الرسالات ، مهد المسيح عليه السلام ومسرى خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ .

وحين أردت أن أتقدم بموضوع لرسالة الدكتوراه ، لم أتردد في أن يكون الموضوع له علاقة بفلسطين ، لأنني كأحد أبناء النكبة الأولى الذين اغتال العدو فجر حياتهم ، رغبت في خدمة هذا الثرى المقدس . وعلى الرغم من اهتمام الدارسين من أبناء فلسطين بالأدب في هذا القطر الاّ أنني لم أجد أحداً منهم قد أفرد « الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث » باهتمام خاص ، وما جاء في هذا الأمر لا يعدو أن يكون مرور الكرام ، استثني من تلك الدراسات « حياة الأدب الفلسطيني الحديث» ،على أن صاحبه الدكتور عبد الرحمن ياغي ، قد وقف عند بداية النكبة ، وما ذكره في الجانب الاجتماعي جاء في ثنايا استعراضه لحياة الشعر بعامة من أول النهضة حتى النكبة .

لقد استهوى الجانب السياسي في الشعر العديد من الدارسين ،فهناك أدب المقاومة في فلسطين ، والأدب الفلسطيني المقاوم للمرحوم غسّان كنفاني . كما تناول الدكتور عبد الرحمن الكيالي « الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين » ودرس آخرون كالدكتور كامل السوافيري « الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني » ، ولا ننكر جهود الدكتور ناصر الدين الأسد في « محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن » ، ولكن جميع هذه الدراسات لم تتناول الجانب الاجتماعي الاّ ما جاء منه مسايراً لروح الدراسة التي يقوم بها هذا الباحث أو ذاك .

ومن هنا فإن الموضوع جديد في تناوله ، وقد أعددت نفسي لمهمة ليست يسيرة ، فالشعر الفلسطيني وشعراؤه متناثرون في كل الأقطار المحيطة بفلسطين ، أما من هم في الداخل فهناك بعض الشعراء ممن لم يطبعوا دواوينهم . ولهذا كانت الرحلة شاقّة ولكنها مشقّة ممتعة ، فالمشقة التي تثمر عملاً يكون لفلسطين تكون أحلى من قرص الشهد ، فلأجلها نستعذب العذاب .

وقد اعتمدت في مصادر البحث على ما يلي :

١ ـ دواوين الشعراء المطبوعة المتوافرة في المكتبات العامة والخاصة .

٢ ـ المكتبات الجامعية وبخاصة مكتبة الجامعة الأردنية التي تضمّ كثيراً من الدواوين القديمة والحديثة ، ومكتبات الدوريات .

٣ ـ الاتصال بالشعراء وذلك عن طريق المقابلات الشخصية أو الرسائل ، وقد قدّم لي عدد من الشعراء دواوينهم المطبوعة والمخطوطة . لقد مهّدوا بعملهم النبيل بعض المسالك الوعرة ، كما أجابوا عن أسئلة طرحتها عليهم بخصوص أهمية الشعر الاجتماعي ، وأثر الوعي الاجتماعي في تفاعل الشعراء مع قضايا مجتمعهم . وقد ردّ كثير منهم على تلك الأسئلة .

٤ ـ الرسائل الجامعية المخطوطة والتي لها صلة بالبحث .وأود أن أشكر القائمين على مكتبة جامعة الأزهر ، ومكتبة جامعة القاهرة ، ولا يفوتني أن أنوّه هنا بدور كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في رعاية موضوعات تتصل بالأدب الفلسطيني ، فقد احصيت أكثر من عشر رسائل في الدراسات العليا عن الأدب الفلسطيني فهناك رسالة عن الشاعر الشيخ سليم أبي الاقبال اليعقوبي ، وأخرى عن الشيخ ابراهيم الدباغ وثالثة عن اسكندر الخوري البيتجالي ، ورابعة عن الشيخ يوسف النبهاني وخامسة عن الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني ، وسادسة عن ابراهيم طوقان ، وسابعة عن أدب المرأة الفلسطينية ، وثامنة عن الشعر الفلسطيني في ظل الثورة الفلسطينية .

وفي جامعة القاهرة اطلعت على رسالة عن كمال ناصر (ماجستير) وأخرى عن شعر المقاومة الفلسطينية ، وثالثة عن الأديب اسعاف النشاشيبي ، ورابعة عن صورة الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر . وبهذا فإن هذه الرعاية تستحق التقدير والثناء والاكبار .

٥ ـ مقابلة المختصين بالأدب الفلسطيني ، ومنهم على سبيل المثال الدكتور عبد الرحمن ياغي الذي أبدى ـ في زيارتين قمت بهما له في منزله بعمّان ـ استعداده لوضع مكتبته تحت تصرفي وقد زوّدني ببعض الكتب هدية منه .

٦ ـ المجلات والصحف في فلسطين وغيرها من الأقطار العربية ، وبخاصة تلك التي تهتم بالشعر الفلسطيني ، كالأديب ، والآداب اللبنانيتين والطريق اللبنانية ، ومجلة المجلّة القاهرية ، ومجلة أفكار الأردنية ، والموقف الأدبي والمعرفة السوريتين ، وعالم الفكر الكويتية ، وصحف الكويت والقاهرة وعمّان وفلسطين . ونخص بالذكر مجلة شؤون فلسطينية وفلسطين الثورة والكتب الصادرة عن مركز الأبحاث ومنظمة التحرير .

٧ ـ الزيارات التي قمت بها الى الأرض المحتلة لمقابلة الشعراء هناك وكذلك الى دمشق وبغداد ، والقاهرة .

٨ ـ الكتب التي تتناول أعلام الشعر والأدب في فلسطين مثل كتاب يعقوب العودات « من أعلام الفكر والأدب في فلسطين » وهو كتاب قيّم أفدت منه كثيراً في معرفة حياة من لم أحصل على دواوينهم من الشعراء من أمثال الشاعر « سعيد العيسى » ، على الرغم من اهمال الكتاب المتعمد لابراهيم طوقان ، وشقيقته فدوى . ولا أدري سبب ذلك لأن صاحبه رحل عن الدنيا قبل أن يخرج كتابه الى النور . كما أفدت من كتب المجموعات الشعرية ، وهي التي تحتوي على أشعار بعض الشعراء مثل ديوان الوطن المحتل ليوسف الخطيب ، والشعر المقاتل لهارون هاشم رشيد وكتب غسان كنفاني التي سبق ذكرها وغيرها .

٩ ـ كتب التاريخ التي تتعلق بالقضية الفلسطينية . كما اطلعت على « رسالة دكتوراه في التاريخ » عن تطور المجتمع في فلسطين بمكتبة جامعة القاهرة .

ومن هنا فقد توافر لديّ مادة غزيرة أثناء عملية الجمع ، أخذت منها ما احتاجت اليه الدراسة ، وحفظت الباقي للاستفادة منه في أعمال سترى النور قريباً .

وقد قمت بتقسيم خطة البحث الى مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب وخاتمة .

وفي المقدمة تناولت أسباب اختياري للبحث ، ومصادره ، والخطة التي اتبعتها في البحث .

أما في التمهيد فقد تحدثت عن « لمحات عن المجتمع الفلسطيني » شملت النواحي الجغرافية والسياسية والثقافية والعادات في المجتمع .

وأفردت الباب الأول للحديث عن الشعر الاجتماعي في فلسطين ومظاهره .

وقد مهدت للفصول بمقدمة عن مظاهر الشعر الاجتماعي واشتمل الباب الأول على ستة فصول .

الفصل الأول عن حياة اللاجئين وتصوير ما يعانونه من ألوان البؤس والشقاء .

والفصل الثاني عن الفلسطينيين في الأرض المحتلة ، وتمسكهم بها ، وفيه تحدثت مستشهداً بالشعر الاجتماعي ، عن قضايا المجتمع ، ومشاكله ، في ظل الاحتلال ، وتشبّث الناس بأرضهم ، ودعوة الشعراء للتمسك بها .

أما الفصل الثالث ، فقد أفردته للمرأة الفلسطينية ، وفيه قدمت تمهيداً لأحوال المرأة بعد النكبة ومن ثم استشهدت بالشعر الاجتماعي في طرح قضايا المرأة ، وتعليمها ودعوتها الى التمسك بأهداب الدين ، والخلق القويم .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الكادحين والبؤساء ، ومن عمال وفلاحين وبيّنت سوء أحوال الايتام ، ودعمنا ذلك بالنماذج الشعرية الاجتماعية ، التي تدعو للأخذ بيد الأيتام والفقراء ورعايتهم .

وأفردت الفصل الخامس لدعوات للوحدة الوطنية ، والتحرير ، والعلم ، وبيّنت موقف الشعراء ، في نبذ التفرقة والخصام ، واشادتهم بروح المحبة والأخوة ، كما دعوا الى المطالبة بالحرية ، والسعي في طريق العلم .

وفي الفصل السادس تناولت « آفات اجتماعية » وهي تمثل عادات طارئة على المجتمع الفلسطيني ، وقدّمنا شواهد الشعر الاجتماعي في هذا الجانب كما أنني عرضت لآفة خطيرة هي آفة الجاسوس والسمسار ، ورأينا كيف ألهب الشعراء بسياطهم جلود المارقين ، الخونة .

وخصصت الباب الثاني ، للحديث عن ملامح الشعر الاجتماعي وسماته وقد قسّمته الى فصلين .

أما الفصل الأول فقد اشتمل على السمات والملامح التعبيرية وفيه درست الألفاظ ، والأساليب والموسيقى الشعرية ، أما الألفاظ فقد بيّنت استخدام الشعراء للألفاظ العامية المبتذلة ، والتعبيرات الدارجة الغنية بالايحاء ، كما مال شعراء الأرض المحتلة الى استخدام

« لغة الشعب » والأمثال ، والمواويل الشعبية في شعرهم دون اسفاف او ركاكة ، ولكن لتعميق الارتباط بالجذور الضاربة في اعماق الأرض ، ثم بيّنت المعجم الشعري الذي شاع تداول الفاظه في الشعر الاجتماعي وبخاصة في تصوير حياة اللاجئين .

وأما الأساليب فقد تناولت الأساليب التي تميّز بها الشعر الاجتماعي كالأسلوب المباشر الخطابي ثم بيّنت استخدام الاسلوب القصصي والأسلوب الرمزي ، وكانت هناك محاولات للاسلوب الملحمي القائم على الأسطورة .

وفي مجال الموسيقى الشعرية تناولت الأوزان وكانت قصائد الشعراء الاجتماعية قد بنيت وفق النظام العمودي ، أو الشكل الحر .

أما القوافي فقد تعددت، كما تناولت مسألة القافية في الشعر الحر فهي اما مطلقة أو مرسلة أو مقيّدة .

وفي الفصل الثاني تناولت التصوير والخيال ، ورأينا أن الصورة كانت تقليدية كما جاء بها السابقون أو حديثه تمثل واقع الحياة كما في حياة اللاجئين . أو تتكون من صورة كلية كما وضحت الصورة الكلية من خلال وحدة الموقف أو وحدة القصيدة .

وجاء الباب الثالث للحديث عن شعراء « من أهم اعلام الشعر الاجتماعي في فلسطين » ، وقد قسمته الى ثلاثة فصول .

الفصل الأول تناولت فيه شعراء ما قبل النكبة عام ١٩٤٨ ، وهم سليم اليعقوبي ، وابراهيم الدباغ ، وابراهيم طوقان .

وقد عرضنا لنماذج من شعرهم في الأغراض المختلفة وركّزنا على الشعر الاجتماعي كما تضمن الحديث عن آثار كل واحد منهم .

وفي الفصل الثاني : تحدثت عن « شعراء عاصروا النكبة وهم : اسكندر الخوري ، وابو سلمى ، وكمال ناصر » والثلاثة رحلوا عن الدنيا وكان آخرهم « أبا سلمى » الذي انتقل الى جوار ربه في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٨٠ بينما توفي اسكندر الخوري وكمال ناصر في سنة ١٩٧٣ .

أمّا الفصل الثالث فقد أردته للحديث عن « شعراء ما بعد النكبة وهم هارون هاشم رشيد ، توفيق زياد ، ومحمود درويش .

وبعد أن انتهت الأبواب والفصول جاءت الخاتمة وفيها ايجاز لما سبق ان عرضته في الرسالة ، وما توصلنا اليه من نتائج .

وفي الختام لا يسعني الاّ أن اتقدم بالشكر الجزيل والثناء والتقدير ، لاستاذي الفاضل الاستاذ الدكتور / حسن جاد حسن عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (سابقاً) على ارشاداته وتوجيهاته التي أنارت لي درب البحث وجنيت منها أطيب ثمار الفائدة .

كما أتوجه بالشكر لكل من ذلّل لي طريق البحث وقدّم لي مساعدة مهما كانت . وأخص بالشكر ثانية شعراء فلسطين وشواعرها الذين جاء هذا البحث منهم وللبلد الذي يعشقون .

لقد بذلت من الجهد اقصى طاقتي فإن اصبت فهذا توفيق من الله عز وجل ، وان جانبني الصواب فحسبي انني لم اقصد ذلك ، فالكمال لله وحده .

« ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير »

محمد شحادة عليان

البـــاب الأول
الشعر الاجتماعي في فلسطين
ومظاهره

الفصل الأول : **حياة اللاجئين**
الفصل الثاني : **الفلسطينيون في الأرض المحتلة وتمسكهم بها**
الفصل الثالث : **المرأة الفلسطينية**
الفصل الرابع : **الكادحون والبؤساء**
الفصل الخامس : **دعوات الى الوحدة الوطنية والتحرير ، والتكافل الاجتماعي ، والعلم**
الفصل السادس : **آفات اجتماعية**

مظاهر البؤس والفاقة ، قضايا العمال والفلاحين ، كما تناولت النقد الاجتماعي للبخلاء والتجار الجشعين ، ومانعي الزكاة والمغرورين ، والجهلاء ، وطلاب السلطة ، وخونة البلاد ، الى جانب الدعوة الى معاونة المنكوبين في فلسطين وخارجها ، والاشادة بالصحافة والوقوف الى جانبها حينما كانت تعطلها السلطات الحاكمة .

ولقد طرأ على موضوعات الشعر الاجتماعي بعض التجديد حيث عرضت في اطار قصصي بدأه اسكندر الخوري ومحيي الدين الحاج عيسى ، وبرهان العبوشي ، وقد عبّد هذا النهج الطريق أمام الشعر الذي قيل بعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ تمثلت في المسرحية والملحمة .

- ٤ -

وجاءت نكبة عام ١٩٤٨ لتلقي ظلاً من الحزن والكآبة على حياة من شردوا من ديارهم العامرة بأفخر الرياش ، ليسكنوا خياماً ـ في مهب الريح ـ لا تقيهم برودة الشتاء أو حرارة الصيف .

وأصبحت حياة اللاجئين وخيامهم من موضوعات الشعر الاجتماعي التي انبرى الشعراء لتصويرها ، فكان « ابو سلمى » وهارون هاشم رشيد وعلي هاشم رشيد ، وخليل زقطان ، ويوسف الخطيب ومعين بسيسو ، ومحمود الحوت ، وكمال ناصر ، ورجا سمرين ، وجميل علوش ، وفدوى طوقان ، وبرهان العبوشي ، ومحمد العدناني ، وسميرة ابو غزالة ، ودعد الكيالي واسمى طوبي ، وغيرهم ممن سجّل مظاهر البؤس والفاقة والتشرد التي عاناها ويعانيها اللاجئون وعبر عن مشاعره الحزينة نحو المأساة وعمقها في نفوس الناس كما يقول هارون هاشم رشيد ، الذي أدمته جراح أهله فيقول معبراً عن أوضاع البؤس والشقاء ، عن الفقر والجوع والتشريد الذي يعانيه كل فلسطيني موضحاً الطريق الوحيد لعودة الأرض المغتصبة في قصيدته « صوت لاجىء » :

أخي في الخيمة السوداء في الكهف
أخي في الجوع في التشريد في الخوف
أخي في الحزن في الآلام في الضعف
أخوك انا برغم الظلم والارهاق والعسف

* * *

أخي لن يغمض الجفن على حق ولا ثار

يسبح باسمه الزمن ؟
لماذا ؟ نحن يا أبتي . . ؟
لماذا ، نحن أغراب ؟[1]

وتبقى الأشواق والأماني العذاب تراود كل « ابناء المنفى » وهم يهتفون :

أبي
لو أنّ لي كالطير
اجنحة ، لتحملني
لطرت بلهفة رعناء
من شوق ، الى وطني
ولكني من الأرض
تظلّ الأرض تجذبني[2]

ويبقى الأمل النور الذي يضيءُ قلوب اللاجئين في منفاهم ويبدد ظلام الخيام والكهوف . ويبقى اللاجىء يرحل بروحه كل يوم الى وطنه الى أن يتحقق النصر :

لنا أمل سيدفعنا
اذا ما لوّح الثأر
فصبرا يا ابنتي . . صبراً
غداة غد . . لنا النصر[3]

* * *

٢ - وفي قصائد الدكتور رجا سمرين[4] تصوير دقيق لحياة اللاجئين ، ومآسيهم ،

---

(١) من ديوان مع الغرباء ص ٨ - ٩ .
(٢) الديوان السابق ، ص ١٤ .
(٣) الديوان السابق ، ص ١٥ .
(٤) رجا سمرين : ولد الشاعر في قرية قالونيا ، احدى قرى لواء القدس في ١٩٢٩/٣/٧ . تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة قريته ، وأتم تعليمه الثانوي في كلية روضة المعارف في القدس . وبعد حدوث النكبة عام ١٩٤٨ توجه الى الأزهر الشريف لمواصلة تعليمه الجامعي . وفي عام ١٩٥٥ حصل على درجة الليسانس من كلية اللغة العربية . وواصل دراسته العليا في كلية اللغة العربية فحصل على الماجستير عام ١٩٦٧ ، وتوّج كفاحه في سبيل العلم بالحصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٧٢ وكان موضوع رسالته « شعر المرأة العربية بعد الحرب العالمية الثانية » .
عمل رجا سمرين بالتدريس في الأردن والسعودية والكويت ، وهو الآن يعمل موجهاً للغة العربية في المرحلة

وما يكابدونه من آلام وأوصاب ، فهو أحد أبناء النكبة الذين اكتووا بنارها ، ولهذا نجده يهدي ديوان شعره « الضائعون » إلى إخوته المشرّدين ، وقد جاء في الإهداء قوله : « إلى الذين لفظتهم الحياة ، فهاموا في مغاورها حائرين ، الى أبناء وطني المشرّدين وسائر المعذبين في الأرض » .

وفي قصيدته « نداء الثأر »[1] يهيب الشاعر بكل حر يأبى الضيم ، أن ينفض عن نفسه الهوان والذّل ، ويثور على الواقع البائس الأليم ، الذي يرزح تحت نيره اللاجئون ، يعانون الفقر والمرض والجوع بعد أن كانوا يقطنون القصورَ العالية ، أمّا اليوم فإننا نرى انتظار اللاجىء ما تقدمه « وكالة الغوث » وهي اعانة لا تورث الّا الأمراض والعلل . يقول :

دماء الحقد تغلي في عروقي ... ونار الثأر تضطرم اضطراما
أحسّ لها بأعماقي زفيرا ... يؤرّقني فيحرمني المناما
ويهتف صارخاً في كل وقت ... علام النوم يا هذا علاما ؟
الام رضا الهوان وأنت حر ... ونفس الحر تأبى ان تضاما
ألم تغضبك آهات الثكالى ... ألم توقظك أنات اليتامى
أليس الموت خيراً من حياة ... بها تلقى المجاعة والأواما
أتنسى عيشك الزاهي وعهدا ... جميلاً ما تودّ له انصراما
وآمالا وأحلاماً عذابا ... رقاقاً مثل أنداء الخزامى
وترضى بالمعيشة في خيام ... تظل بها مهاناً مستضاما
تجرّع من كؤوس الذلّ صابا ... وتقضي العمر تفترش الرغاما
وتحيا كالسوام على فتات ... يجود به أعاديك القدامى
وينخر في عظامك كل داء ... عضال يورد النفس الحماما
ويفتك في بنيك الجهل فتكا ... جهنم لا تساويه غراما
وأرضك شيّدت فيها الأعادي ... قصوراً مشمخرّات عظاما
تدار عليهم فيها كؤوس ... من النعماء مترعة مداما

= الثانوية بدولة الكويت . صدر له ديوان « الضائعون » عام ١٩٦٠ وهو ينشر قصائده في الصحف والمجلات في الكويت وخارجها . وهو ينوي اصدار ديوانه المخطوط واعادة طبع الديوان الأول . ورجا ينظم قصائده وفق نظام القصيدة القديم (العمودي) والجديد (الشكل الحر) ، وقد ظهر أثر النكبة في ديوانه الأول فخصّ اللاجئين بقصائد عبّر فيها عما يكابدونه من أهوال وأوصاب . وفي بعض قصائده في الديوان المطبوع ، والقصائد المخطوطة استخدام لاسلوب الرمز دون ايغال في الغموض .

(١) ديوان الضائعون / رجا سمرين عمان ١٩٦٠ ، ص ١٨ - ١٩ .

وانت تعبّ من كأس الرزايا تروم لجرحك الدامي التئاما
ولـيس لـه وربك من دواء مفيد غير ان تغشى الصداما
وتنهل من مناهله فإني رأيت الجولة الأخرى لزاما[1]

لقد أراد الشاعر بأسلوبه الذي نوّع فيه بين الخبر والإنشاء أن يثير الحميَّة في النفوس ، ويذكى نار الحقد على أعداء اغتالوا بهجة الحياة لدى كل فلسطيني ، وهو بتصويره لحياة اللاجئين ، وأوضاعهم البائسة ، يدعو للتخلص من حياة الخيام ، والسعي من أجل العودة . ولا عجب ان تكون المروج والسهول الخضراء والذكريات الجميلة ماثلة للعين والذاكرة ، فزمن القصيدة ليس بعيداً عن سنة النكبة ، فقد نظم الشاعر القصيدة في سنة ١٩٥٣ .

أما عن « خيام اللاجئين »[2] فقد قال من قصيدة حملت الاسم ذاته :

وصمة أنْت في جبين الدّهور يا خِياماً في القَفْر مثل القبور
يا نشاز الأنغام يا سبة التّاريـ ـخ والنّاس في جميع العُصور
أنت مأوى للبؤْس شيّدك الظُّلـ ـم على رسْمِ حقّنا المهْدُور
أنت سِفْر الآلام سطّرك البَغْـ ـي بأيد مخْضوبة بالشُّرور
كمْ حوى نسجك الأرثّ عزيزاً يسفح الدمع في دُجى الديجور
راثيا عيشه الكريم وعهدا قد قضاه منعما في القصور
يوم ان كان في الديار كريما يَترع الكأس من مُدام السُّرور

لقد رأى الشاعر في خيام اللاجئين أبشع صور الظلم والجور ، الذي لحق بشعبه ، فهي وصمة في جبين الدهور ، ورمز البؤس ، ودليل ساطع على الآلام التي يكابدها أبناء فلسطين بعد أن اقترفت عصابات البغي جريمة العصر بحق شعب كان آمناً عزيزاً ، منعما في دياره . ولقد صدق الشاعر في تصويره لمعاناة اللاجئين ، فكم عزيز مستور الحال ، سحّ دمعه هتانا كسحابة لا ينقطع مطرها بعد أن أدبرت عنه الدنيا ، وأصبح ضحية المؤامرة الاستعمارية ، يعاني الجوع ، والفقر ، والمرض ، والمهانة ، وهو الذي اعتقد ان المنزل الذي رفرفت عليه السعادة لا بد وأن يعود اليه . ولذلك فإن الكثير من اللاجئين حملوا معهم مفاتيح منازلهم وخزائنهم ، بعد أن اغلقوها اعتقاداً منهم أن الفراق لن يعدو أياماً معدودات[3] .

---

(١) الديوان السابق ص ١٨ - ١٩ .

(٢) الديوان السابق ص ٢١ - ٢٣ .

(٣) كثيراً ما حدثني والدي رحمه الله عن بداية الهجرة من فلسطين بكلمات ممزوجة بالألم والحسرة وكأنه مع كل كلمة يقارن ويتذكر حال الأمس وما نحن فيه اليوم . وكان مما قاله : إنّ الناس لم يحملوا معهم سوى أمتعة . تاركين

ويبيّن رجا سمرين معالم الحياة التي عاشها اللاجئون في الخيام ، فبعد أن كان الأبناء يرفلون في أثواب العز ، وبلهنية العيش ، والنساء تميس في ملابس الحرير ، يعشن حياة كريمة في ظل روابط الأسرة ، يتمتعن بجمال بلادهن : سهولها وجبالها وهن في أبهى مظاهر النعمة لا ينال منهن برد الشتاء ، ولا حر الصيف ، اذ بالحال تتبدل ؛ وتدير لهن الدنيا ظهر المجن، فإذا بهن وقد أصبحن نهباً للجوع، والعري، والأمراض، والعسر، لا يجدن من يمد يد الاحسان لهن او لصغارهن ، فكم طفل ذوى كزهرة ذابلة ، وكم من امرأة حامل خطفها المنون ، لأنها افتقدت مقومات البقاء ، فلا طعام يقيم اودها ويبقي على جنينها ، ولا كساء يقي جسمها النحيل برداً أو حراً . فيقول :

ثم قد صرن « والزمان خؤون» لمصير ويا له من مصير
صرن نهباً للجوع والعري والأمراض والقرّ والضنى والحرور
يبخل الناس بالفتات عليهن ويأبى الغنيّ نفح اليسير
لا يواري أجسامهن لباس غير رثّ من الثياب قصير
واذا ما الشتاء أخنى عليهن أحاط الخيام كل ثبور
فإذا بالصغار تذوي كما تذوي زهور الرياض في الزمهرير
واذا بالنساء والموت يهوي يخطف الحاملات خطف النسور
صائحات . . يا عُرْبُ هل من مغيث ؟ ضارعات . . يا قومُ هل من مُجير ؟!
مَنْ مجيري من الهوان فإني ضقت ذرعا بالعيش بين الجحور[1]

وفي قصيدة أخرى يعنوان « اللاجئون والشتاء »[2] يرسم لنا رجا سمرين لوحات تمثل مأساة اللاجئين في الشتاء ، فالظلام يلفّ الأرض ، والرعد يزمجر بقوة ، وهيهات لخيمة أن تصمد في وجه الرياح الهوجاء . وفي الشتاء يجرف السيل ما بالخيام بعد أن يقتلعها من جذورها الواهية ، مثيراً حالة من الفزع ، والرعب ، والعويل ، ولا حول للنساء ولا قوة ، أمام هذا الواقع الدامي ، فلا يجدن إلّا الدموع يذرفنها على عز ضائع ومجد أثيل .

أما الرجال فعيونهم ترنو الى الوطن المغصوب ، الى دور خلّفوها عامرة بأفخر الرياش بينما هم الآن في شقاء وحسرة تخنق آهاتهم .

إنّ الموت في أرض الآباء والأجداد أفضل من المبيت على الطوي ، وصراع الذل ،

= كل ما يملكون في منازلهم بعد اقفالها أملاً في العودة بعد هدوء القتال . وأفادني ان الكثير من الفلسطينيين كانوا يئنون من يحمل أمتعة كثيرة عن ذلك. وعندما امتدت بهم أيام الغربة وحاول البعض الوصول الى منازلهم وجدوها وقد نهبت بعد أن عبث بها الأعداء وأتوا على ما فيها .

(١) الديوان السابق ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) الديوان السابق ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

والهوان والفاقة. لقد تعاقبت على اللاجئين قوى شر متعددة : منها الطبيعية ومنها البشرية ، فهناك القيود ، والظلم ، والاستعباد ، والتلاعب بالمصير ، والوعود الكاذبة ، والاذلال الذي يتعرض له اللاجئون ليس له حصر : بدءاً من خيامهم السوداء ، و« طابور التموين » ، وانتهاء بقيود التنقل من مكان الى آخر في بعض أماكن تجمعهم والحد من حريتهم ، وها هوذا رجا سمرين يقول بصوت نابع من أعماق فؤاد مكلوم :

نشر الظلام جناحه فوق الروابي والبطاح
والرعد يقصف والرياح الهوج رعناء الجماح
والبرق يسطع في الدجى فيحيله مثل الصباح
واللاجئون خيامُهم تهتز في مسرى الرياح
السيل يجرف ما بها فيثير بينهم الصياح
ونساؤهم حيرى تردّد في أسى لحن النواح
يبكين عزّا ضائعاً قد غاله الحين المتاح

* * *

ورجالهم شدت عيونهم الى الأفق البعيد
ترنو الى دور بها قد خلّفوا العيش الرغيد
فتثور فيهم ذكريات العزّ والمجد التليد
فيسائلون نفوسهم في لهفة « لم لا نعود ؟! »
أو ليس خيراً أن نموت هناك في أرض الجدود
من أن نبيت على الطوى ونظلّ نرسف في القيود
تلهو بنا الأنواء والأدواء والبرد الشديد

* * *

ويل لنا ما قيمة العيش الذليل الأسحم
من بعد ما كنا نباهي عاليات الأنجم
نحيا بأجواف الخيام وكل كهف مظلم
نفنى ببطء واليهود بأرضنا في أنعم(١)

---

(١) الديوان السابق ص ٢٤ ـ ٢٦ نظمت القصيدة بتاريخ ١٩٥٣ .

ولكن شاعرنا يريد من الأقدار أن تزيد من ثورتها وعواصفها لتحرك النفوس ، وتعيد النخوة العربية والكرامة التي بها نجتث الشقاء وأسبابه .

واذا كان ذلك حال اللاجئين في الشتاء ، فماذا عساه يكون في الربيع ؟ هل للربيع مظهر آخر لدى اللاجىء يختلف عمّا لدى غيره من سائر أبناء الدنيا ؟! لقد وضّح لنا « رجا سمرين » معالم الربيع ومفهومه لدى اللاجىء في قصيدته التي جاءت بعنوان « ربيع اللاجىء »[1] .

الربيع لدى اللاجىء عندما تخضرّ أيامه وتورق آماله بعودته الى دياره ، وعلى هامته اكليل الغار ، أما عندما يفترس الجوع والمرض ، الكبار والأطفال ، وعندما يخيّم شبح السجن ، على صدر الأحرار ، وعندما يتفشى الجهل ، فلا ربيع يلذّ لعين اللاجىء .

الربيع سيزهو جماله ويكون ملء العين والفؤاد عندما تطهر الديار من دنس الغاصبين ، وسيبقى اللاجىء يعيش في خريف أيامه حتى يبصر الوطن طليقاً ، وقد فكّ من قيوده وأغلاله ولفظت أرضه الغزاة ، وعاد ابناؤه يلثمون ثراه ، يقول سمرين :

ربيعي حين أرجع للديار ... يتوّج هامتي اكليل غار
ربيعي حين لا جوع لعينٌ ... يروع طفلتي وصغار جاري
ربيعي حين لا داء عضال ... يطوّح بالكبار وبالصغار
ربيعي حين لا ألقى صغارا ... يقضّون الحياة على الطّوار
ربيعي حين لا سجنٌ رهيبٌ ... يحيط بكل حرّ لا يداري
ربيعي حين لا جهل صفيق ... ربيعي حين أفلت من إساري
ربيعي حين يغمرنا سلام ... ترفّ به المنى مثل الدراري

* * *

فأما والديار مدنسات ... بأقدام اليهود الغاصبينا
وأصحاب لها هاموا حفاة ... عراة في المهامه لاجئينا
فمهما شِمْتُ من حسن بهيج ... تقرّ به عيون الناظرينا
وداعب مَسْمَعي لحن جميل ... له وقع يسرّ السامعينا
فإني سوف أحيا في خريف ... وأمكث بائساً نضواً حزينا
أصارع كل ظلم في ثبات ... ولا أخشى سياط الظالمينا
الى أن أبصر الوطن المفدى ... طليقاً من يد المستعمرينا[2]

(١) الديوان السابق ص ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) الديوان السابق ص ٢٩ .

وفي « نشيد الخلاص »[1] ، يعيد لنا الشاعر تصوير مظاهر الشقاء ، ويتخذ من الخيمة السوداء والكهف الصخري منطلقاً للتحرير ، فلا يعوق اللاجئ الحرمان والشقاء عن المضي في طريق الخلاص ، وتحقيق النصر ، وسيبزغ الفجر مهما طال انتظاره ، وقد عرّض الشاعر بمن خاضوا غمار المعركة عام ١٩٤٨ مع العدو دون استعداد يماثل استعداده ، بل إن الأسلحة الفاسدة التي جهزت بها الجيوش العربية ساعدت على قتل أبنائها وهزيمتهم ، مما أضعف الثقة بالنفوس ، وأظهرت عدوهم وكأنه فارس الميدان الذي لا يشق له غبار ، وهذا هو الأفك العظيم ، والشاعر هنا يشير الى قضية الأسلحة الفاسدة التي كانت مع الجيش المصري الذي جاء الى فلسطين عام ١٩٤٨ :

من الخيمة السوداء من كهفي الصخري ... سأمضي الى التحرير والمجد والنصر
ومن هوة الحرمان والفقر والأسى ... سأمضي الى الانصاف والخير والبشر
سأجمع أشلائي وامضي مُيَمِّماً ... الى العزة الشمّاء في همّة النسر
لئن طال مكثي في الدياجير إنني ... على جمرة الاصرار منتظر فجري
سيبزغ فجري رغم ما جمع العدا ... من القوّة الرّعناء والكيد والمكر
سيبزغ فجري رغم من خانني ومن ... غداة طلبت العون قد حفروا قبري
فقد أرسلوا اجنادهم للوغى وفي ... نفوسهمو ما لا يطاق من الغدر
أرادوا لهم أن يدفعوا صولة العدا ... بأسلحة شوهاء ترتد في النحر
لقد شرّدوا شعبي وأفنَوا جنودهم ... وباعوا حياة العزّ والمجد بالتبر
فلسطين لا تأسي فإنّا برغمنا ... هجرناك يا أم الغطارفة الغرّ
ورود حياض الموت أشهى مرادنا ... فامّا ننال النصر أو فللقبر[2]

وتوالت نفثات الشاعر « رجا سمرين » تحمل المعاني ذاتها ، تصور المعاناة في الخيام السوداء ، والكهوف ، والقفار المجدبة ، والقيود التي زادت من عذاب اللاجئين . ففي قصيدته « يا فلسطين »[3] يجلو ذلك بوضوح لا غموض فيه :

يا فلسطين يا ابنة الامجاد ... يا عرين الآباء والأجداد
يا محط الآمال يا مهبط النور ومأوى الأبناء ، والأحفاد
كيف تصفو الحياة للنازح الصبّ وهنا المنكوب بالانشاد
ورُباك الخضراء أمست مراحا ... لجيوش الأنذال والأوغاد

---

(١) الديوان السابق ص ٣٠ - ٣٣ (وقد قيلت القصيدة عام ١٩٥١) .
(٢) الديوان السابق ص ٣٣ .
(٣) الديوان السابق ص ٣٩ - ٤١ .

والسنين العجاف تمضي تباعاً وبنوك الأبطال في الأصفاد
في الكهوف السوداء في المهمه الجدب ، ووسط الخيام في كل وادي
هم يذوقون كل يوم صنوفا من عذاب الأرواح والأجساد

ومهما اعترض أبناء فلسطين من وسائل القهر ، والعذاب ، فإن الشباب يغلي بالحماس ، ولن تنال الآلام من عزيمة الشعب بل هي حافزة للجهاد

لن تنال الآلام منّا ولكن هي للشعب حافز للجهاد

وفي قصيدة « عودة »[1] يصوّر رجا سمرين ، ما يعانيه الوطن وابناؤه من ظلم وهوان ، وهو ينعي على أبناء أمته انصرافهم عن نصرة فلسطين ، ولم يكن قد مضى على النكبة الأولى سوى سبعة أعوام ، وها نحن الآن نطوي العام الرابع عشر على النكبة الثانية بعد عدوان عام ١٩٦٧ ، فإذا كان الشاعر قد استصرخ أبناء قومه لنجدة القسم المغصوب عام ١٩٤٨ ، فإنّه لم يجد من يردد صدى استغاثته ، فضاعت فلسطين بكاملها ، فهل تتردد الصرخة من جديد ؟

قد صرت يا وطني ملاذاً للشرّيد وللطّريد
وبنوك في جوف الخيام بلا شعور كالعبيد
ركنوا لظلم الغاشمين وقد رضوا ذل القيود
وجنانك الفيحاء قد أمست مراحا لليهود

* * *

وطني الجريح لقد رجعت اليك يحدو بي الأمل
فرأيت فيك مآسياً تدمى لمرآها المُقَل
وبنو العروبة خانعون وليس يعروهم خجل
لا يغضبون لما أصاب رباك من خطب جلل[2]

لقد راع الشاعر ما شاهده من مصائب ، ومحن ، وأهوال ، واذلال ، ونوازل تحيط بشعبه ، وحياة قاسية لا تبقي ولا تذر ، فعجب من أمة غارقة في سباتها لم تفزعها كارثة هذا الوطن وشعبه ، وكأنهم من كوكب آخر ، لقد رأى مظاهر الخنوع ، والرضوخ للذل متفشية في بني أمته ، وهو الذي يريدهم أهل عزة وفخار ، ليهبوا هبّة رجل واحد يدافعون عن حق أصيل ويذودون عن مقدساتهم ويحمون مسرى الرسول محمد ﷺ .

* * *

(١) الديوان السابق ص ٣٩ - ٤١ .
(٢) الديوان السابق ص ٣٩ - ٤١ .

حولك وجدت الموت يلفّ المكان الذي اصبح مسرحاً للحطام والدمار ، وفي ظل هذا الوجوم نسمع الكلمات تتدافع من بين شفاه غلّف عيون اصحابها الأسى ، داعية للثأر والانتقام ، فالواقع مرير يقد الصخر ، وقد أفلح الشاعر في عرض هذه الصورة الواقعية الموحية بعمق مأساة الحياة التي يكابدها اللاجئون .

وفي قصيدة « اللاجئون والشتاء »[1] للشاعر رجا سمرين لوحات تنبض بالحزن تصوّر مأساة اللاجئين وقسوة الحياة .

وفي قصيدة « نساء قرانا » يعرض لنا الشاعر توفيق شديد صورة كلية نابضة بالحركة والحياة فهي تعرض لنا في لوحات فنّية نساء القرية وقد حملن أطفالهن في وقت مبكر من الصباح ، ونكاد نسمع احاديثهن وهن في الطريق الى الحقول ، نلمح ألوان ملابسهن الريفية الجميلة الناصعة ، واذا ما وصلن الى الحقول وضعن أطفالهن في ظل اشجار الزيتون وتركن أمر الحراسة لكلب وفيّ . ونرى الوجوه المشرقة وهي تهمس للأزواج بأحاديث تحمل البشر والمرح . وتنطلق الضحكات من قلوب لم يكدرها الهمّ ، وتبدأ السواعد بالعمل ، ونرى هذه الصورة الجميلة التي تثير الاعتزاز، والصورة هنا منتزعة من واقع القرية ، وقد عمّقت الاحساس بدور المرأة الفلسطينية ومشاركتها للرجل في تحمل أعباء الحياة بل إنها في وجودها تشيع السعادة في أرجاء الحقول فتصدح طيورها فرحة مستبشرة بهذا الوجود .

يقول الشاعر :

أرأيتهن ، وقد حملن الى الحقول على الرؤوس مهودهنه ؟
أطفالهن بها ، وقد رقدوا على رقص الشباب بخطوهنه
متعجلات للحقول وقد سرى من قبلهن بعولهنه
يرفلن في بيض الثياب الناصعات نظافةً كقلوبهنه
يوقظن غافي الطير من أعشاشها أنّى سعت أقدامهنه
فتهب ، والألحان في أفواهها شدواً ترجعه لهنه
فاذا وصلن الى الحقول ، حسرن عن أفواههن خمارهنه
وسعين للزيتونة الكبرى يضعن بظلّها اطفالهنه
ويكلن للكلب الأمين حراسة الطفل الصغير ويأتمنّه
ويملن في مرح الى أزواجهن وقد شرعن فؤوسهنه
بسواعد قد لوحتها الشمس فازدادت على القوة فتنه
مستبشرات ضاحكات ما ألفن الهمّ يوماً أو عرفنه[2]

---

(١) انظر الباب الأول الفصل الأول (رقم ٩) .

٦ ـ أكرم الشقيري :
نداء الأحرار ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٧ ـ أكرم عرفات :
ألحان العاصفة ، مطبعة شركة الجهراء ، الكويت ، ط / ١ ، ١٩٧٨ .

٨ ـ أمين شنّار :
المشعل الخالد ، مطبعة الشرق ، البيرة ، رام الله ، ١٩٥٧ .

٩ ـ برهان الدين العبوشي :
* مسرحية وطن الشهيد ، المطبعة الاقتصادية ، القدس ، ١٩٤٧ .
* جبل النار ، بغداد ، ١٩٥٦ .
* النيازك ، دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٧ .

١٠ ـ توفيق زياد :
ديوان توفيق زيّاد (الأعمال الكاملة) دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ .

١١ ـ جميل علوش : عرس الصحراء ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ .
١٢ ـ جورج نجيب خليل : لهيب الحنين ، فلسطين ، ١٩٧١ .
١٣ ـ جوهرة سفّاريني : نداء الأرض (ديوان مخطوط) .
١٤ ـ حلمي الزواتي : عبير ودماء ، مكتبة الخلود ، الكويت ، ط / ٢ ، ١٩٧٦ .
١٥ ـ حنا أبو حنا : نداء الجراح ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
١٦ ـ خالد أبو خالد : وسام على صدر الميليشيا ، دار الآداب ، بيروت ، ط / ١ ، ١٩٧١ .
١٧ ـ خليل زقطان : صوت الجياع ، مطبعة دار الأيتام الاسلامية ، القدس ، ١٩٥٣ .
١٨ ـ دعد الكيالي : ولم تمطري يا غيوم ، بيروت ١٩٧٠ .
١٩ ـ راضي صدوق : النار والطين ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط / ١ ، ١٩٦٦ .
٢٠ ـ رجا سمرين : الضائعون ، عمّان ، ١٩٦٠ .
٢١ ـ رجوة عساف : الخبز في بلادي ، مكتبة عمّان ، عمّان ، ط / ١ ، ١٩٦٨ .
٢٢ ـ سالم جبران :
* كلمات في القلب ، مطبعة دار القبس العربي ـ عكا ، فلسطين .